Journal of Faslo el-khitab — مجلة فصل الخطاب
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 10، عدد رقم: 04، ديسمبر 2021، صص: 07 -22

تاريخ الاستلام(2021/09/11) تاريخ القبول (2021/10/23) تاريخ النشر (2021/12/30)

التّمثيل الحجاجي لبلاغة الصّورة في الخطاب القرآني

The Argumentative Representation of the Image Eloquence in the Qur'anic Discourse

العياشي بختي
الجامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة، layachi.bakhti@univ-dbkm.dz

ملخص:

تُعدّ الصّورة جوهر البلاغة بوصفها مصدر إمتاع و إقناع؛ لأنّها تُسهم بشكل كبير في استقطاب المتلقين والتّأثير فيهم عقليا ووجدانيا، ففي قراءتها الحديثة تتطلب حضورا فكريا واعيا للإمساك بحقيقتها، لأنّها تعتمد على ترك فراغ كلامي يستوجب من المتلقي ملء هذا المحلّ بالاستعانة بالقرينة المصرّح بها، أو تستلزم جهدا مضنيا في التأويل للإمساك بالأفق المتوقع منها، لذا نجدها تتميّز عن بقية العناصر بحسن البيان وقوّة الحجّة.

كلمات مفتاحية: الحجاج، الصورة، السخرية، الاستعارة، الإقناع، الإمتاع.

Summary:

The image is regarded as the essence of rhetoric as a source of entertainment and persuasion, because it contributes greatly to attracting recipients and influencing them mentally and emotionally. In its modern perusal, it requires a conscious intellectual presence to grasp its truth, because it deliberately leaves a verbal void that requires the recipient to fill this place with the help of the authorized presumption, or it requires a strenuous effort in interpretation to grasp the horizon expected of it. Therefore, we find that it is distinguished from the rest of the elements by its good statement and strength of argument.

Keywords: Argumentative, image, irony, metaphor, persuasion, entertainment

المؤلف المرسل: العياشي بختي الإيميل: layachi.bakhti@univ-dbkm.dz

1. مقدمة:

إنّ ارتباط الحجاج بالخطاب الطّبيعي جعله «يجمع بين الصّورة والمضمون، فهو يحدّد مجموعة من الأقوال التي تستهدف بيان حقيقة ما، أو إقناع المخاطب أو إنشاء معرفة...»(1)، فهو يشتغل على لغة التّخاطب اليومي، والصّورة التي يتضمّنها ليست بالضرورة تحمل أدلّة صريحة، بل أحيانا تتخللها أدلّة مُضمرة، تتجه مباشرة إلى مقاصد المتكلم؛ لأنّ الحجاج يستهدف الإقناع والإفحام معا، وينشد إلى إحراز المنفعة لمتلقي هذا الخطاب ولا شك أنّه سيُسهم في تغيير سلوك المتلقي أو معتقده مهما كانت الطبقة المتبعة في ذلك(2)، فالمتكلم لا يتكلم إلا لقصد التّأثير وبلوغ غاية منشودة، مستعملا كلّ الوسائل والآليات الحجاجية للوصول إلى إقناع السامع.

ولا مشاحة أنّ البلاغة الجديدة لم تعد تهتم«بشكل كبير بالخطاب الذي يدعو إلى التّأثير الجمالي المحض وزخرفة القول؛ بل تسعى إلى تثمين كلّ فعل وقول، وتجعله وسيلة للإقناع من خلال جذب ذهن السّامع عبر تقنيات التّمثل، كما تعُدّ وسيلة للإبداع والابتكار»(3)، بالإضافة إلى سعيها إلى أهداف جليلة، فقد جاءت من أجل بناء فكر حسن ناضج، يعمل على ربط جسر التّواصل بين الأمم وتطويرها، فهي بلاغة تنجز أربع غايات أساسية وهي:

.الوصول إلى التفكير المنطقي السّديد الذي يُؤمَن فيه من الخطأ.

تحريك الذكاء، وتدريبه بالكلمات.

معرفة كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي.

معرفة كيف نستعمل الكلمات للتّحريك الاجتماعي(4).

لقد سعى الدكتور وحيد عبد المجيد إلى الكشف عن أهم التقاطعات بين البلاغة العربية والغربية في مجال الاستدلال البياني الحجاجي، قائلا: «البلاغة هي الإبلاغ المُفهم المُؤثّر إفهاماً وتأثيرا من شأنهما تحقيق الإقناع والاستمالة، وهو تصوّر يتّسق ـ أكثر ما يتّسق ـ بفنّ الخطابة، وما دام الدّرس البلاغي قد اتّخذ الاستمالة والإقناع هدفا لفنّ البلاغة، فإنّه يتّفق من هذه الزاوية مع الدّرس الغربي الذي اتّخذ الاستمالة والإقناع ـ أيضا ـ هدفا لفنّ الخطابة قديماً وحديثاً» (5)، فالبلاغة توظّف لغرض حجاجي، وتُستثمر في خدمة التّواصل والاتّصال والتّأثير والتّأثّر؛ لأنّ«وراء كلّ حجاج بلاغة، والعكس صحيح؛ لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع»(6)، وهو مقصدية المتكلّم من كلّ الخطاب.

2. بلاغة الصورة في الخطاب الحجاجي:

تُعدّ الصّورة في أي خطاب جزءا مهماً في إقناع المتلقي والتّأثير فيه، بل هي جوهر الشّعر وتاجه، ووسيلة من وسائل الاتّصال بين الأفراد، لأنّها تكشف عن شعرية الإبداع التي يتميّز بها المبدع، فهي تجسيم لمنظر حسّي أو مشهد خيالي، يتّخذ اللّفظ أداة له، وهناك ـ بالإضافة إلى التجسيم ـ اللّون والظّل، والإيحاء والإطار. وكلّها عوامل لها قيمتها في تشكيل الصّورة وتقويمها(7). ويمكن أن نقول أيضا: هي استدعاء للحجج والمشاعر، لقصد التّأثير والإقناع. وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤلات عميقة تتعلّق بوظائف الصّورة في الخطاب البلاغي نذكر منها: ما درجة التّفاعل والتواصل الذي تُبديه الصّورة في الخطاب؟ كيف يتعاطى المتلقي معها عند فعل القراءة؟ هل يكمن أثرها في الرصيد الإقناعي أم في التجسيد الإمتاعي؟ أو إلى تمثيل جانب جمالي؛ باعتبار الجمال فيها رافد من روافد الإقناع وتقنية من تقنيات الاستمالة والتّأثير فهو متمّم لوظيفتها، وإن لم يُقصد إليه قصداً(8)، ولعلّ هذا الهدف المنشود يتحقق في تزويد المتلقين بأفكار جديدة وبوجهات نظر مستحدثة تعمل على إحداث نوع من التّغيير الاجتماعي.

إنّ الخطاب القرآني هو المنبع الأوحد والمميّز للبلاغة العربية والذي تجلّت فيه قوّة البيان وأسلوب التّحدي، فهو معجز بمفرداته وتراكيبه، ونظامه الصّوتي الذي يستهوي النّفوس، لذا نجده متنوعا في أساليبه سواء كانت صريحة أم ضمنية، يخاطب البشرية كافة فلا حدود جغرافية ولا زمنية ولا عرقية تتحكم فيه، فارتبطت آياته بالحجاج ما جعله مبنيا على عدة أغراض، منها التفاؤل، والوعيد، والترغيب، والترهيب، أو لرفع الحرج عن كل ما يخدش الحياء، مستعملا الفاعلية النّشطة للفكر الإنساني للوصول بمتلقيه إلى المعنى المقصود دون تشويش، وهذا ما سجله وليام جيمس من أنّ الخطاب الديني يسعى إلى تقديم الشيء على نحو يحمل فيه براهينه معه، فلا يُحتاج إلى برهان آخر9. فهو يسعى إلى تغيير وضع قائم، من إثبات حقيقة الإيمان بالله وجزائه، وأمور الآخرة والثواب والعقاب، كما يتميّز بتعدد المتلقين، سواء كان المقبلون عليه من أهل الإيمان أم المدبرون عنه من أهل الكفر والنّفاق. فنجاح الخطاب الحجاجي مرتكز على إفهام المتلقين، يقول الشاطبي: «إنّما يصح في مسلك الإفهام والفهم ـ ما يكون عاما لجميع العرب، فلا يُتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه بحسب الألفاظ والمعاني؛ فإنّ النّاس ـ في الفهم، وتأتّي التّكليف فيه ـ ليسوا على وازن واحد ولا متقارب، إلا أنّهم يتقاربون في أمور الجمهورية.... ولم يكونوا يتعمقون في

كلامهم، ولا في أعمالهم، إلا بمقدار ما لا يخلُ بمقاصدهم؛ اللّهم إلا أن يقصدوا أمرا خاصا لأناس خاصة، فذلك كالكنايات الغامضة، والرموز البعيدة كالتي تخفى على الجمهور، ولا تخفى عمَّن قصد بها، وإلا كان خارجا عن حكم معهودها». 10

ومن أهمّ خصائص الصّورة في القرآن الكريم أنّها تمثّل أعلى درجات البيان، لما فيها من الدقّة في تصوير الحقائق اليقينية التي لا تبعث إلى السآمة أو الملل الذي تنفر منه النّفوس، فهو يتضمّن في جزئه الأوّل كلامًا مصرّحًا به، ونقصد بذلك القرينة اللّفظية، التي تؤدي بدورها إلى فهم الكلام الضّمني الذي ينتجه المتلقي(11)، فهي تمثيل الشيء المحسوس وإظهاره للمخاطب، من أجل تنوير فكره بالحجّة البيّنة والتّسليم بها.

3. حجاجية الصّورة الاستعارية:

لا مماحكة أنّ الاستعارة جوهرة اللّسان البشري، لأنّها تُعين المتكلّم على الوصول إلى أهدافه الحجاجية، بُغية التّأثير والإقناع، بل إنّها من الوسائل اللّغوية والبلاغية التي نعتمدها بشكل كبير جدا، ما دُمنا نسلّم بفرضية الطابع المجازي للّغة الطّبيعية (12)، فإذا كان الخطاب الشّعري ينزع إلى توظيف الصّورة الشّعرية الممزوجة بالخيال الذي يُرجى منه اللذّة والإمتاع وتملّك قلب السامع، فإنّ« الاستعارة الحجاجية تكون أكثر قهرا واقتسارا»(13)، كما تُسهم بشكل مُلفت إلى إحداث تغيّر في الموقف الفكريّ أو الوجداني للمتلقي وحلّ مشكلات جوهرية يعانيها النّاس بطريقة ذكية من خلال الإيحاءات والمشاهد الواقعية التي تقدّمها الصّورة، والتي تُعدّ قاعدة مشتركة بين المخَاطب والمتلقي في الدعوى وتبادل الأحاسيس والمشاعر(14)، ونبذ كل صعوبة في التّوافق والاندماج بين المتلقين، كما تعبر عن نوع من الخفاء الدلالي لمفرداتها، وهذا من مسلّمات اللّغة الطبيعية؛ لأنّها «أصل لكل غموض دلالي، ومجال لكل انزياح لساني، وعليه يكون الأمر معقّدا وعسير الفهم في العملية الحجاجية»(15)، وعلى المخاطب أن يستعمل كفاءته اللّغوية والبلاغية والمنطقية والنّفسية، بغية السيطرة على ذهن المتلقي والتّأثير فيه، وفي المقابل يجب على هذا الأخير(المتلقي) تحريك آلة عقله لفك شفرات الخطاب من خلال آليات الفهم والتأويل، حتى يتسنّى له الوقوف على مقصدية الخطاب.

من الملاحظ أنّ الاستعارة حاضرة معنا في كل وقت، يتداولها النّاس بيسر، وهذا ما يؤكده "لا كوف وتورنر Turner"على أنّها «أداة عادية حيث نستعملها بدون وعي منّا، بشكل آلي وبأقل مجهود(...) وهي تسمح لنا بفهم ذواتنا والعالم الذي نعيش فيه بطريقة أسهل من

أنماط أخرى للفكر»(16)، وهذا يتوافق مع قول ابن جني من قبل حين قال: «اعلم أنّ أكثر اللّغة مع تأمّله مجاز لا حقيقة»(17)، فاللّغة البشرية لا تخلو من الاستعمال الاستعاري، لما لها من طاقة الاستيعاب التي لا تخلو منها أي لغة، كما تُشكل جوهر الخطاب القرآني وخاصّته، بوصفها أسلوبا تصويريا فاعلا في الحجاج والإقناع، وكذلك قدرتها العالية في جذب انتباه المتلقي. ونأخذ نماذج تطبيقية من القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾[الحاقة، 11]

كان طغيان الماء في زمن نوح عليه السلام، وهذا بسبب دعائه على قومه حين كذّبوا دعوته واستسلموا لأهوائهم، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، فاغرق أهل الكفر بالطوفان، ونجا أهل الإيمان في السفينة. استخدم الفعل ﴿طغا﴾ في بداية الآية على سبيل الاستعارة، وهذا «لشدّته الخارقة للعادة تشبيها لها بطغيان الطاغي على النّاس تشبيه تقريب، فإنّ الطوفان أقوى شدّة من طغيان الطّاغي»18، هذا الفعل المجازي جاء تنبيهًا على تحقّق الوقوع بأمر من الله سبحانه وتعالى، وقد جاء إسقاطه على الماء لاستخلاص التّشابه بين طغيان الإنسان المتجبّر، وهذا لغاية يراد منها تقريب المعنى إلى المتلقي كما يراه فونتانيي (Fontanier)، أنّ وظيفة الاستعارة الحجاجية هي« تقديم فكرة تحت علامة تكون ملفتة أكثر، أو معروفة أكثر والّتي لا تتعلق على كل حال بالأولى بأي رابط آخر غير نوع من التّوافق أو التّماثل»(19).

إنّ من الواضح الجلي أنّ تجسيد المعاني بصورة حسيّة وبطريقة منظمة في هكذا مشاهد، تجعل المتلقي أكثر تأثيرا وفاعلية في الإقناع، كما يتسنّى للمشاهد أيضا عظمة هذا الخالق على أنّه وحده المستحق للعبادة. وهذا الاستدلال بالدّليل الحسّي يدلّ على« عظمة هذه الأجسام، وشدّتها وقوّتها، فإذا شعر العقل بوجود موجود قاهر لهذه الأجسام مستول عليها، متصرّف فيها كيف شاء وأراد، صار ذلك سببا لوقوف القوّة العقلية على كمال جلال الله تعالى وعلوّ قهره وكمال قدرته ومشيئته»(20)، هذه الحجج العينية تدفع بالمتلقي إلى التّأمل والتّدبر، واستنباط دلائل قدرة الله.

إنّ مما يجب الإشارة إليه في هذا الصدد: أنّ الاستعارية الحجاجية ـ في هذا المقام ـ جاءت من أجل ملء المحلّ الشّاغر الذي يُلبّي البعد الحجاجي للمتلقّين؛ لأنّ المحلّ «ليس مجرد وسيط سياقي يبيح الاستنتاج، بل إنّه كذلك الحجّة التي نريد استدراج المتلقي إليها

حتى يُذعن لها من دون أن نقول له ذلك»(21)، ويمكن تقديم بعض الأبعاد الحجاجية التي تروم إليها الآية الكريمة وهي الآتي:

ـ إقناع المتلقي أنّ الترغيب والترهيب والعظمة والعُلوّ والجبروت لا تتأتى إلاّ من ذي قدرة، وتتجلّى هذه الصفات والأفعال إلا في ذات الله تعالى وحده.

ـ بناء صورة الذّات الإلهية المؤثرة في النّفوس، وتعظيم مهابته في نفوس المخاطَبين، وأنّ مخاطبة الذّات الإلهية للجمادات (الأرض والسماء، الماء) بما يخاطب به العقلاء دليل على انصياع كلّ مخلوق لأمر الخالق دون تفكير أو رويّة، فكلما طغى على الخطاب الحجاجي مزيدا من المتلازمات في المعاني زادته فسحة كبيرة في بيان الدليل، ومساحة أقوى في التّأثير والإقناع.

ـ تذكير النّاس وإقناعهم أنّ ما حلّ بالأمم السابقة من عذاب وتدمير، كان بسبب كفرهم وإشراكهم بخالقهم.

أما المثال الثاني، فجاء في قوله تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [سورة النحل، 112].

تكون الاستعارة أكثر شعرية وجاذبية عندما تتجرد من معناها الحقيقي المألوف، بحثا عن نمط جديد من التّفكير، وبحثا عن سياق جديد يستدعي لفت الانتباه للوصول إلى المعنى الحقيقي، فاستخدام لفظ "الذّوق" في هذه الآية بدل ألفاظ أخرى لم يأت اعتباطيًا، بل يُعدّ مركزا مميزا للصّورة الاستعارية، وهو يستخدم غالبا في سياق الطعام؛ لأنّه أصدق أداة تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصوّر المنظر للعين، وتنقل الصّوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموسًا محسًا(22)، وأنّ صدورها في القلوب أعمق تأثيرا وتوجيهًا، كما توحي دلالته الحجاجية من خلال الأثر النّفسي الذي يتركه في قلب أهل الزّيغ والضّلال، جراء العذاب الذي يتجرّعونه، «لأنّه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام... وإن لم يكن من المعنويات إلا أنّ العبارة عنه بذوق اللّسان أوضح وأظهر، لأنّ الذائق يتّجه إلى الشيء الذي يريد ذواقه وهو منتبه إليه»(23)، وهذا ما ورد، في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون**﴾[سورة الأنفال، 35].

لقد جُسدت الاستعارة في هذه الآية انطلاقا من محسوس لمعقول، فنجد المحسوس ينطلق من "استحضار حاسّة الذّوق بدلا من الإصابة؛ لشدّة أثر الذّوق في المتلقي، وبه يدرك الطعم المرّ والبشع(24). أما المعنى المعقول، فهو العذاب الذي يتجرعونه جراء بعدهم عن الله، وكفرهم بنعمة الرحمة الإلهية التي تشمل جميع خلقه من الكفار والمنافقين والمؤمنين وحتى العجميات من الحيوانات. فالصّورة الحجاجية في هذا المقام ترسم لنا صنفان من الناس، صنف يؤمنون بالله فهم يشكرونه على النّعم الدنيوية من صحة وأمن وعافية واطمئنان، هي حجّة على المؤمنين في إظهار الحمد والشكر سرّا وعلنا، وهذا يُعد جزءا يسيرا من النّعم المكتنزة لهم يوم الآخر، أما الصنف الثاني من خلقه الذين كفروا بكتابه وبنعمه بعد أن كانوا مطمئنين، فإنّهم لا محالة يتعرضون إلى سلب النّعم وتستبدل بشدّة ونقمة في العيش ويحل محلّ الاطمئنان الخوف والفزع والجوع وعدم الاستقرار، فكلّ صنف مسؤول عن اختيار نتيجته النهائية بنفسه، إمّا أن يكون من المؤمنين أو العاصين. ويمكن أن نمثلها بالمخطط الآتي:

الصنف الأول:

المقدمة الكبرى: قرية مؤمنة مع الشكر والحمد

المقدمة الصغرى: أذاقها الله النّعم والرغد الكريم

النتيجة: الاطمئنان والاستقرار

الصنف الثاني:

المقدمة الكبرى: قرية كفرت بأنعم الله

المقدمة الصغرى: أذاقها الخوف والجوع (سُلبت منها النعمة)

النتيجة: عدم الاطمئنان.

ويستخلص في الأخير من هذه الصّورة الحجج الآتية:

إنّ الخطاب الاستعاري في القرآن الكريم لا يتوقف عند القول الجميل فحسب، بل يهدف إلى إثارة المتلقي إثارة نفسية، وقد يتعدّى إلى تغيير موقف سلوكي، فاستعمال لفظتي "الذّوق"، و"اللباس" في غير موضعهما الأصلي، وهما من الألفاظ المتداول استعمالها في واقعنا المعيش، جَاءَا بهدف استمالة الأسماع، وجذب النّفوس في حالتها المحسوسة، لأنّ المتلقي بصفة عامة يستجيب إلى ما«يكثر دورانه على العيون، ويدوم تردّده في مواقع الأبصار، وأن تدركه الحواس في كل وقت أو في أغلب الأوقات.... وذلك أنّ العيون هي التي

تحفظ صور الأشياء على النفوس»25، كما يحيل هذا المشهد الرباني إلى حال القرية التي يعتريها النّدم والحسرة إذا خرجت عن أمر الله.

ولنا مشهد آخر يصوّر اللهُ فيه القيمة الأخلاقية التي تميّز بها بعض كفّار قريش فاضحًا سلوكهم العدواني لرسالة النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾[سورة هود، 05].

وردت أسباب نزول هذه الآيات في كثير من المصادر وبروايات متعددة، ونكتفي بما جاء به الواحدي إذ يقول: «نزلت في الأخنس بن شُريق، وكان رجلا حُلو الكلام، حُلو المنظر يلْقَى رسول الله ﷺ، فيظهر له أمراً يسرُّه، ويضمر في قلبه خلاف ما يظهر، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يُكْمِنون ما في صدورهم من العداوة لمحمد ﷺ»(26)، وبهذا هدّم الله تعالى سرّهم وفضح كيدهم، فالصّورة تحمل طاقة حجاجية تستمد قوّتها من "عوالم المتلقّين وكفايتهم النّفسية والثقافية والعقائدية، كما تستمدّ قوّتها من الجوانب الضّمنيّة التي تحمل المخاطب على استبعاد المعنى الظّاهر أو الحرفي ليسلُك مسارًا استدلاليًا حجاجيًا يجعله يكتشف المعنى المضمر الذي يستتر وراء المعنى الأول، فالمتلقي يُعد طرفا فاعلاً في العملية الخطابية، ومنتجًا هامًا للمعنى في الحدود التي رسمها المتكلم(27). ويأتي مفهوم مدلول الآية ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ**﴾ استعارة عن النّفاق، والمنافق من طبعه أو من صفته، أنّه يُضمر الحقد والإنكار للنبي ﷺ وللمسلمين كافة، ويبدي في ظاهره أنّه من أهل الإيمان.

إنّ المعنى الأول يوهم للمتلقي أنّ الثّني أو ما يُعرف بالطيّ هو ذلك المعنى الحسّي الظاهر المتولّد من صريح اللفظ، أما حقيقة المعنى الذي يقصده المخاطب(الذات الالهية)، هو المعنى المجازي الذي لا نصل إليه إلا عن طريق الاستدلال العقلي، فهو يوحي إلى معنى الإعراض والإنكار، وهو أسلوب سيميائي فيه إظهار «للكفر والإعراض من الحقّ وعداوة النبي ﷺ، بحيث يكون ذلك مخفيا ومستورا فيها، كما تعطف الثّياب على ما فيها من الأشياء المستورة»(28). فالمشهد التّصويري في هذا المقام، يعرض لنا الذلّ والهوان الذي جناه هؤلاء الكفار، بعد فضح حالتهم النفسية. وبهذا تتجلّى لنا الحجّة أنّ الله تعالى محيط بكافة المعلومات التي تراود هذا الإنسان، وهذا الأخير يحسّ عادة في مثل هذه الخلوة أنّه وحيد لا يراه أحد، فالتّعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه، ويهزّه هزّة عميقة إلى الحقيقة التي قد

يسهو عنها، فيخيّل إليه أن ليس هناك عين تراه(29)، فتتمكن النّفس من الاقتناع بأنّ الله أكبر من كل شيء، يعلم الظّاهر والباطن، والسّر والعلن، ويحمل صفات الكمال والعظمة والسّلطان والقدرة.

4 ـ القوّة الحجاجية للصورة الساخرة:

لا شك أنّ الخطاب السّاخر وُلد كي يُعرّي عن قضايا اجتماعية وأخلاقية وسياسية بطريقة هزلية، في مجتمع يسوده البطش والإنكار والإعراض يستخدم فيه المتكلم أنجع فنّيات السفسطة التي تحكمها براعة التّلاعب بالألفاظ والحروف والعبارات، وكل من مستعملي هذه الطرق والأساليب التي من شأنها إهدار قيمة المتلقي بصورة تهكميّة عبثية في مشهد هزلي فكاهي الذي يعدّه بيرلمان«من أهم الأسلحة الحجاجية»(30)، فهي نوع من الإيحاء غير المباشر ذي النزوع المتعارض، يستخدمه الشخص في تهكمّه على نقيض قضيته، فهي«طريقة تهكمية نقول عكس ما نوّد تبليغه عبر بلاغة المعنى المقلوب Anti phrase»(31). وهي أيضا نوع من الانزياح الكلامي يحاجج به المتكلّم المتلقي قصد التّهكّم والاستهزاء، الذي ينتج عن شدّة الغضب، والتّوتّر.

لقد اعتبرت السّخرية عند البلاغيين والنقّاد من الصّور المجازية، وقد عبّر عنها محمد طروس بمصطلح السّخرية وحجّة الصّمت وهي«إجراء حواري استفزازي تعمل على زعزعة التّوازن النفسي وقطع وإقصاء كل أشكال التواصل، فهي نوع من الحجاج يعمل على تجنّب المناظرات الجادّة؛ وحجّة الصمت تلعب أيضا على تجميد المخاطب»(32)، فهو من التواصل غير الحكيم يسعى إلى تشويه الصفوة من الخلق لغرض عقائدي أو مصلحي أو سياسي.

وتكمن أهمية السّخرية بأنّها، أهم نشاط كلامي بياني يحمله الشعراء والبلغاء من أهل الكفر والشّرك، فاتّخذه أعداء الإسلام كمراوغة كلامية خبيثة، الغرضُ منها إحباط دعاوى الأنبياء والحطّ من شخصياتهم بأسلوب نفسي ينتابه الكيد والمكر، فقد كان حرصهم الشّديد على جمع كل القوى والوسائل والآليات من أجل إخماد فتيل هذا الدين، فاتّخذوه «سلاحا نفسيا مؤثّرا يريدون به تحطيم عزم المسلمين والنّيل من ثقتهم، فتصدّى لهم القرآن بسخرية أبلغ وقعًا، وأشد تحطيمًا، وأنفذ سهمًا»(33)، وعليه نعرض بعض المواقف للسّخرية التي صوّرها القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّعَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ**﴾[سورة هود38].

استعمل الكفّار أسلوب السّخرية، لغرض النّيل من شخصية الأنبياء، وقد ورد موقف السّخرية في قصّة نوح عليه السلام عندما شرع النّبي نوح عليه السلام في صنع السفينة فخاطبوه بلسان حادّ لاذع، لجأ فيه الملأ من قومه، للنَّيل من شخصيته، وهذا من أجل أن يتراجع عن ما يدعو إليه من التّوحيد، فاستعملوا السّخرية كأسلوب حجاجي ساخر على شكل مشاكلة لفظية. يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ «والتّعبير بالمضارع فعل الحاضر وهو الذي يُعطي المشهد حيويته وحدّته، فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التّعبير، يصنع السفينة، ونرى جماعات من قومه المتكبّرين يمرّون به، يسخرون من الرّجل الذي كان يقول لهم: إنّه لرسول الله يدعوهم ويجادلهم فيطيل جدالهم، ثمّ أنه ينقلب نجّارا يصنع مركبا... فإنا نسخر منكم لأنّكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير»(34)، فسُخرية نوح عليه السلام التي جاءت بصيغة المشاكلة، تعبّر عن ردّ فعل قوّي على سخريتهم، ويريد بذلك إظهار حجّته، بأني قادر على ردّ سخريتكم بإذن الله وهي مبالغة في إثبات الحجّة.

ويأتي مشهد آخر يعبّر فيه عن سخرية قوم شعيب عليه السلام، قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾[سورة هود، 87].

بدأت الآية الكريمة باستفهام التّهكم، الذي يكون للاستهزاء، وهو استهزاء قوم شعيب من نبيّهم عليه السلام؛ بذكر ﴿ أَصَلَاتُكَ ﴾، وهي كناية عن الدّين والإيمان، «وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحّته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك»(35)، فقد ربطوا استهزاءهم بما جاء به النبي شعيب عليه السلام من العبادة وهي الصلاة وفي هذا المقام، يقول الزركشي«لما تقدّم ذكر العبادة والتّصرف في الأموال كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحِلم والرشد، لأنّ الحِلم الذي يصحّ به التّكليف والرّشد حسن التصرُّف في الأموال، فكان آخر الآية مناسبا لأوّلها مناسبة معنوية، ويسمّيه بعضهم ملاءمة»(36). فقد عبّروا عن ذلك بطريقة المجاز البلاغي على عكس ما يقرّون به في صدورهم، وبذلك تمثّل السخرية «تعبيرا اصطلاحيا غير مباشر يستبدل فيه المعنى بالضد الدلالي. فالعبارة التي تتضمن السخرية تعبّر عن معناها عبر النقيض»(37)، ولا ينتبه إليها إلا متذوق أو ثاقب الذهن.

وجه المغالطة والسخرية:

إسناد الأمر إلى الصلاة ⟸ علاقة سببية ⟸ (النتيجة): ترك ما يعبد آباؤنا

المقدمة الكبرى: صلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباءنا

المقدمة الصغرى: الصلاة فعل والفعل لا يأمر.

النتيجة: لا نترك ما يعبد آباءنا.

وتكشف لنا الصّورة الثانية التي جاءت بصيغة التهكّم المحمّل باللّفظ المجازي المغالطي حيث يشعر السّامع كأنّه يرى هذه الصّورة بعينيه، ويرى موضع السّخرية واضحًا بارزًا، وهي تؤدي وظيفتها في إثارة الانفعال والمشاعر لمتلقيها(38)، وهذا ما يتجلى لنا في لفظتي ﴿الحليم الرشيد﴾، فتحمل من المعاني والدلالات ما تظهر في معناها الحرفي على رجاحة العقل والفطنة والذّكاء؛ أي في ظاهرها تكريم وتشريف، لكن في المقابل وفي عمقها الدلالي والحجاجي تحمل التّناقض والسفسطة، فهي تظهر بطريقة غير مباشرة مظاهر العنف والتّحريض والعناد والاستكبار الذي أعمى قلوبهم ونمثلها بالشكل الآتي.

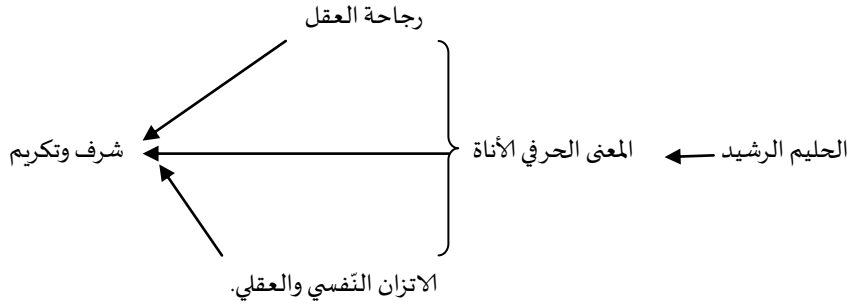

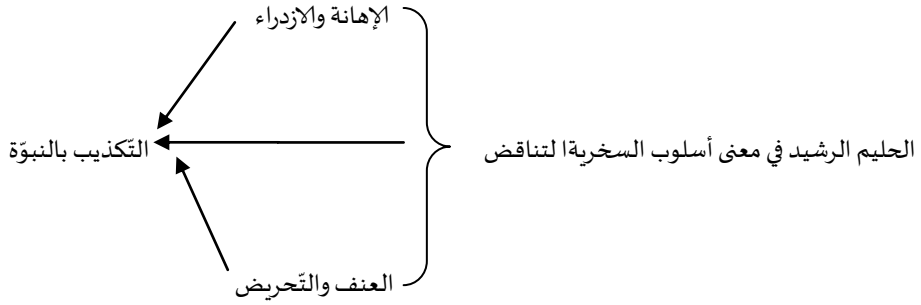

5. خاتمة:

الصّورة هي بمثابة ترجمان لما تراه العين البصيرة على الباصرة في الواقع، وإضفائها في أحسن حلّة من أجل التّأثير في النّفس وكذلك ارتباطها بالإقناع، أما الصّورة في الخطاب القرآني فجاءت بأبلغ حجّة في الاقناع، وأحسن وسيلة في نقل الأفكار والمشاعر إلى المتلقي، فهي تمثّل أعلى درجات البيان؛ لأنّها تلقي بالفكر والخيال انسجاما بيانيًا من الدقّة في تصوير الحقائق اليقينية، وحضورها مُلفت للنّظر في القرآن الكريم، وهذا يُدلّ على سموِّ لغتة ودقّة تصويره للمشاهد، فكلما كان معنى الصّورة أبعد وأعمق وأغرب كانت أبلغ في الحجّة وأعجب وألذ للنّفس، ولهذا تُعدّ الصّورة في القرآن الكريم بكلّ أطيافها ـ سواء كانت استعارة أو تمثيلا أو سخرية ـ آلية حجاجية إقناعية؛ لأنّها تقوم بتصوير الحقائق اليقينية التي لا تبعث إلى السآمة أو الملل الذي تنفر منه النّفوس، وهذا من أجل تقريب الأفكار والحقائق للمتلقين إما ترغيبا أو ترهيبا.

مراجع البحث وإحالاته:

(1). حسان الباهي: اللغة والمنطق، دار الأمان، الرباط، ط1، 2000، ص138.

(2) . ينظر: حبيب أعراب: الحجاح والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 30، العدد 01، يوليو . سبتمبر، 2001، ص99.

(3) . ينظر: صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008، ص16.

(4) . ينظر: سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة، (د.ط)، ص90.

(5) . جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د.ط)، 2000م، ص129 /130.

(6) . حبيب أعراب: الحجاح والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري)، ص110.

(7) . ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988، ص75.

(8) . ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، عمان، ط2، 2007م، ص112.111.

(9) . ينظر: حسان الباهي: اللغة والمنطق، مرجع سابق، ص، 125.

(10) . محمد مشبال: بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015، ص، 123.

(11) . ينظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص127.

(12) . ينظر: أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص106.

(13) . عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر(مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د.ط)، 2006م، ص118.

(14) . ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص495.

(15) . عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر، ص131.

(16) . سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، العدد 19 جانفي 2015، جامعة تيزي وزو، الجزائر، ص 207.

(17) . ابن جني: الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ج2، ص447.

(18) . الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص123.

(19) . سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، ص203.

(20) أبو الخير شمس الدين محمد الجزري: كفاية للألمعي، ص81.

(21) . كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي ﵁، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2016م، ص208.

(22) . أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 2005، ص166.

(23) . محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1997، ص 127.

(24) . ينظر: السيد جعفر باقر الحسيني، أساليب البيان في القرآن، بوستان كتاب، أصفهان، ط1، ص510.

(25) . الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص151.

(26) . أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: أسباب النزول، تخريج، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، دمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1992، ص265.

(27) . ينظر: كمال الزماني، حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي ﵁، ص236.

(28) . أبو الطيب صديق بن حسين بن علي البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط)، 1992، ج6، ص140.

(29) . ينظر: سيد قطب، في ضلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، المجلد الخامس، ط2، 2003، ص1855.

(30) . سالم الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص128.

(31) . عبد النبي ذاكر: العين الساخرة، أقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في لأدب الرحلة، ط1، مارس، 2000م، ص9.

(32) . محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدّراسات البلاغيّة والمنطقيّة واللسانيّة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص39.

(33) . عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1978، ص12.

(34) . سيد قطب: في ضلال القرآن، المجلد الرابع، ص1877.

(35) . الزمخشري أبو القاسم: الكشاف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، علق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009، ج12، ص494.

(36) . الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح، يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج1، ص171.

(37) . توماس أ. سلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة نخبة، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، مصطفى لبيب، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، ج 2، 2016م، ص328.

(38) . ينظر: عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص103.

قائمة مراجع البحث وإحالاته:

- القرآن الكريم.

2 . حسان الباهي: اللغة والمنطق، دار الأمان، الرباط، ط1، 2000.

3 . صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الإصدار الأول، 2008.

4 . سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، القاهرة.

5 . جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د.ط)، 2000م.

6 . صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1988.

7. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، عمان، ط2، 2007م.

8. محمد مشبال: بلاغة الخطاب الديني، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015.

9 . عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991.

10. أبو بكر العزاوي: اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م.

11 . عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر(مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د.ط)، 2006م.

12 . عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

13. ابن جني: الخصائص، تحقيق، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ج2.

14. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.

15 . كمال الزماني: حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي ﷺ، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2016م.

16. أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 2005.

17. محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1997.

18. السيد جعفر باقر الحسيني، أساليب البيان في القرآن، بوستان كتاب، أصفهان، ط1، (د.ت).

19 . أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي: أسباب النزول، تخريج، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، دمام، المملكة العربية السعودية، ط2، 1992.

20 . أبو الطيب صديق بن حسين بن علي البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط)، 1992، ج6.

21. سيد قطب، في ضلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، المجلد الخامس، ط2، 2003م.

22. سالم الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

23 . عبد النبي ذاكر: العين الساخرة، أقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، ط1، مارس، 2000م.

24. عبد الحليم حنفي: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1978.

25 . الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح، يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج1.

26 . الزمخشري أبو القاسم: الكشاف، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، علق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 2009، ج12.

27 . توماس أ. سلوان: موسوعة البلاغة، ترجمة نخبة، مراجعة وتقديم، عماد عبد اللطيف، مصطفى لبيب، طبع بالهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ط1، ج 2، 2016م.

28 . حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد 30، العدد 01، يوليو .سبتمبر، 2001.

29 . سامية إدريس: أنماط اشتغال الاستعارة في البلاغة الجديدة، مجلة الخطاب، العدد 19 جانفي 2015، جامعة تيزي وزو، الجزائر.